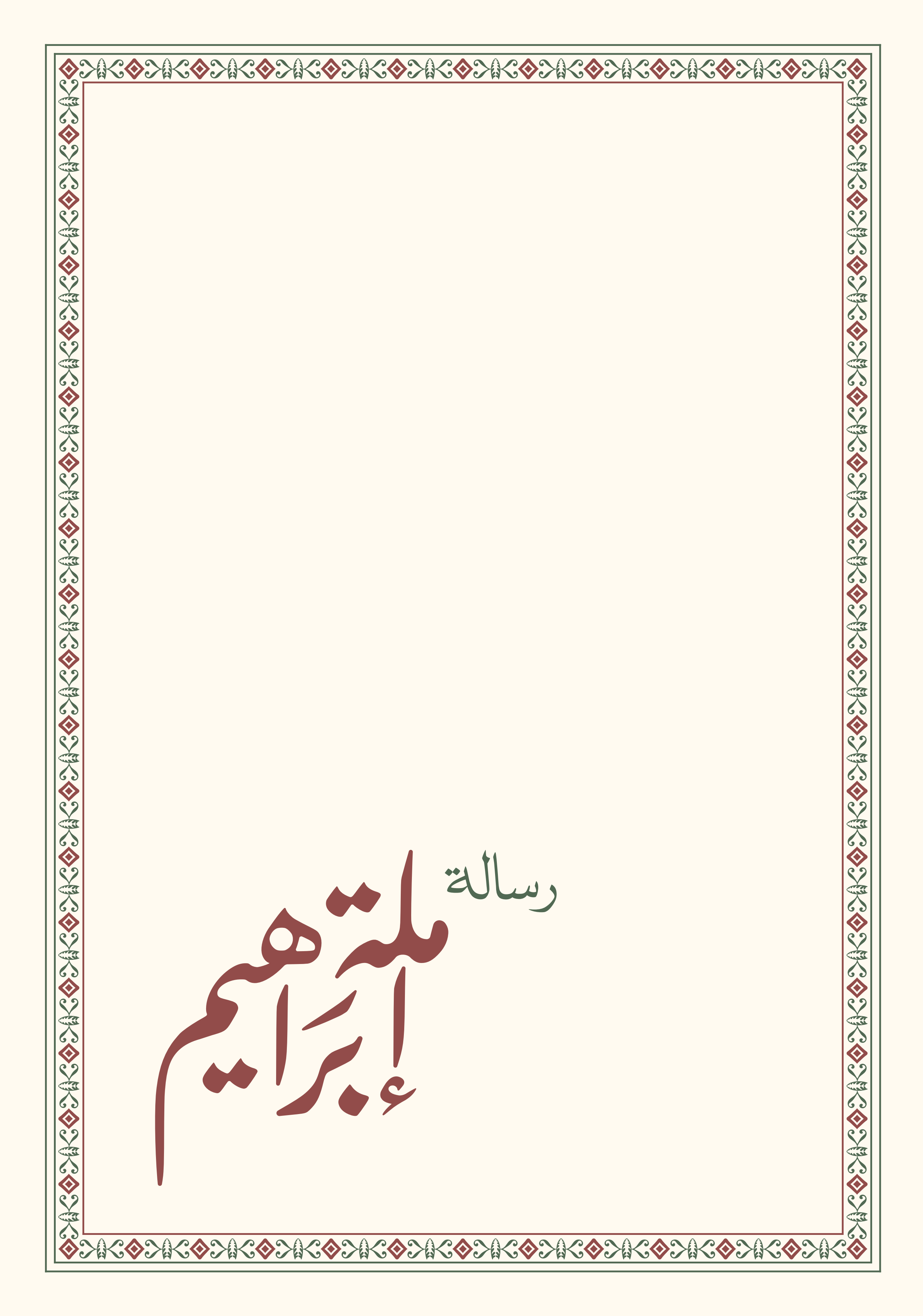
ملة إبراهيم

رسالة مشبعة بالأدلة لتقريب مفهوم
الملة الحنيفية المغيبة في هذا الزمان

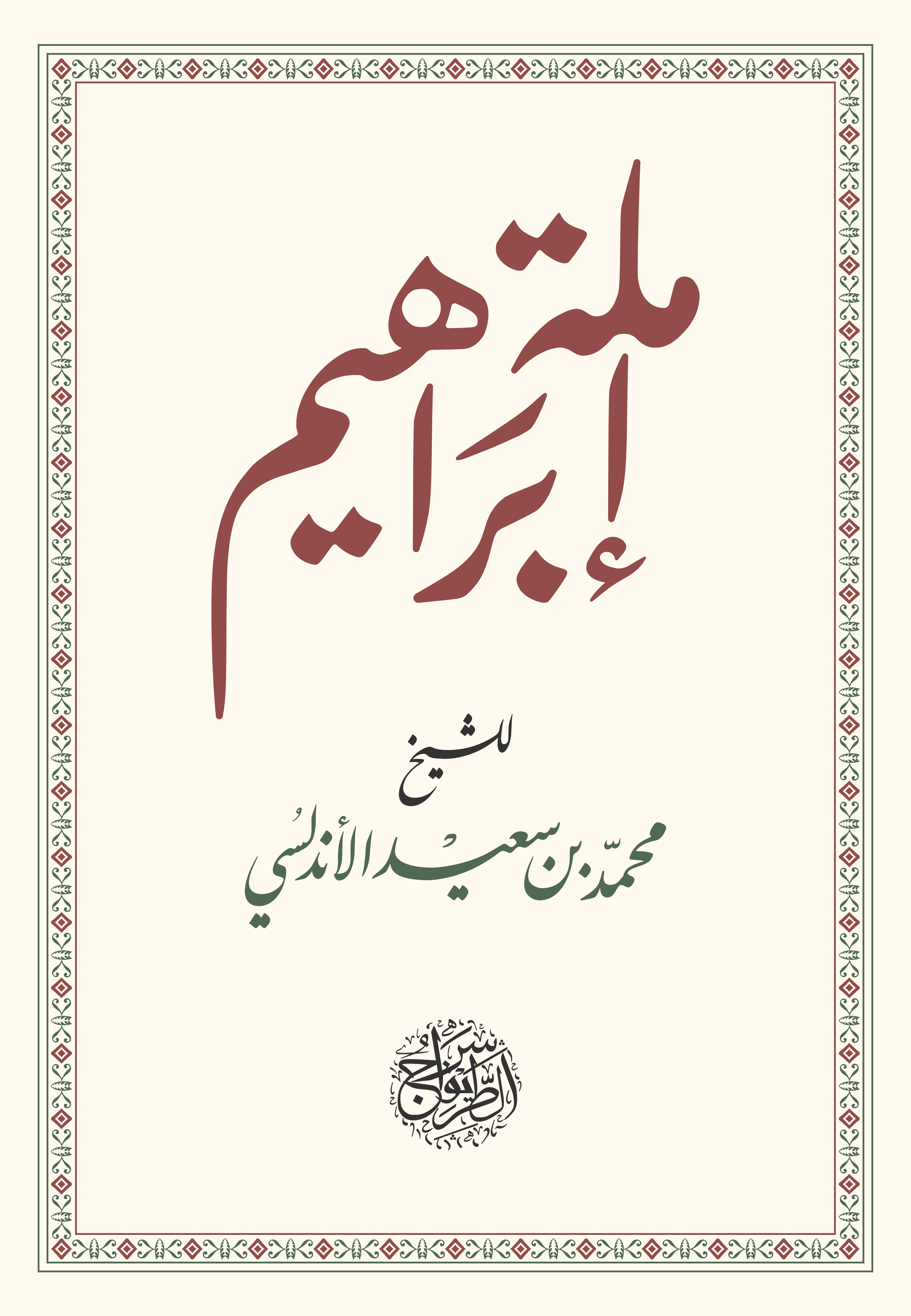
للشيخ
محمد بن سعيد الأندلسي


رسالة
ملة إبراهيم

العنـــوان: ملة إبراهيم
الكاتـــب: محمد بن سعيد الأندلسي (أبو همام الإدريسي)
النـاشـــر: سراج الطريق
الصفحات: ٧٦ صفحة
المقـــاس: ١٧.٦ × ٢٥ سم

الإصدار الثاني
شعبان
١٤٤٦هـ




ملة إبراهيم
للشيخ
محمد بن سعيد الأندلسي


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

فقد قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[١]، فإنّ الواجب علىٰ كل مكلّف مُتجرّد أن يبحث عن الحق الذي جاء به موكب النور من لدُن نوح عليه السلام إلىٰ الخاتم محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وألا يتلقّىٰ الإسلامَ الموروث–من الآباء والمشايخ والعامة–بالتسليم دون تمحيصٍ وعرضٍ علىٰ الكتاب والسنّة والأمر العتيق؛ فإنّ التحريف والتبديل قد طال معاني الدين في هٰذا الزمان، وقد تولىٰ زمام ذٰلك أحبار ورهبان وعلماء ومؤسسات تعكف عليها الطواغيت، تعمل علىٰ سلخ هٰذه الأمّة من الفطرة السويّة وتنكيسها، وتقليب الحقائق وتبديلها، فصار الإسلام إلىٰ أشد غربة مرّت به منذ ظهوره واستعلائه في صدر هٰذه الأمّة، فاندرسَت في هٰذا الزمان معالمه، وطُمست حدوده، ونُكست أعلامه، فسادت الجاهلية بأوضاعها وأوضارها في هٰذه الديار؛ فالقبور والقباب بالدعاء تُعبد، والمحاكم بالدعاوىٰ تُقصد، والحُكم والتشريع إلىٰ الأرباب

---

[١] سورة النساء: ١٧٠



يُسند، ودين الجهم وفكر الغرب في المدارس يُجدَّد، والفطَر تُسلخ وتُنسخ وتُبدَّد، ودعاة الحق مقهورة في السجن، أو في الأرض هائمة تُشرَّد، وصوت الحق مكتوم، وطالبه يمرّ عبر حواجز وعوائق ومتاهات ودروب وخصوم، حتى يزيل ركام الباطل الراسخ الموهوم، حتى يقال لمن نجا من هذه الخنادق والسدود: يا ويحه كيف نجا!

إنّ الأمر عظيم، والخَطب جليل، والمصير إمّا إلى جنة فنِعم أجرُ العاملين، أو نار فبئس مثوى الكافرين، والمكوث فيهما أبد الآبدين، فهنيئًا للناجي من الفائزين، وسخطًا للمتردّي من الهالكين. فالله الله في الملة الحنيفية المندرسة، تعلّموها عباد الله، وأحيوها في بيوتكم ونواديكم وبين إخوانكم وأهليكم، واستقيموا عليها واثبتوا على تبعاتها؛ فإنها حبلُ الله المتين وصراطه المستقيم، ولا نجاة إلا بالاستمساك بها والثبات عليها إلى الممات، مهما كانت التبعات والعقبات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢]، فقد كان إبراهيم إمامًا مُتّبَعًا، وحنيفًا مسلمًا، وأمّة على الدين الحق وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ

[١] سورة الأعراف: ١٧٠
[٢] سورة النحل: ١٢٣

حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١]. قال محمد بن عبد الوهاب: «﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين. ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾: لا للملوك ولا للتجار المترَفين. ﴿حَنِيفًا﴾: لا يميل يمينًا ولا شمالاً كفِعل العلماء المفتونين. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: خلافًا لمن كثَّر سوادهم وزعم أنه من المسلمين»[٢].

لقد أعلن الخليل في قومه البراءة من شركهم، بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[٣]، وجهر بالحنيفية، وإفراد الله بالعبودية، والتوجه للذي فطر السماوات والأرض، بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾[٤]، وصدع فيهم بالبراءة منهم، بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥]، «أي: لستُ ممّن يدين دينكم، ويتّبع ملّتكم أيها المشركون»[٦].

فما كان جوابهم إلا أن: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[٧].

وبعد الدعوة إلى التوحيد، والصدع به، والفتنة في الدين، والصبر على

---

[١] سورة النحل: ١٢٠
[٢] الدرر السنية: ١٣/ ٣١١
[٣] سورة الأنعام: ٧٨
[٤] سورة الأنعام: ٧٩
[٥] سورة الأنعام: ٧٩
[٦] تفسير الطبري - دار التربية والتراث: ١١/ ٤٨٨
[٧] سورة الأنبياء: ٦٨

الأذىٰ فيه، والبراءة القولية والعملية، والبلاء المبين، اعتزَلهم وما يعبدون من دون الله رب العالمين: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[١].

ثم جاءت الهِبات والعطايا، بعد مفاصلة واعتزال من كفَر بربّ البرايا: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[٢].

وبعد كل هٰذه المقامات العليّة في الدين، خاف الخليل علىٰ نفسه وبنيه الشرك بالله وعبادة الأوثان: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[٣].

فكيف نقول نحن وما عسانا أن نقول؟! فإن كان إبراهيم الخليل –الأمّة– قد خاف علىٰ نفسه وبنيه عبادة الأوثان –من النجوم والأحجار–، فمن يأمن البلاء بعد إمام الحنفاء في هٰذه الديار؟ قال إبراهيم التّيمي: «من يأمن البلاء بعد قول إبراهيم: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾؟!»[٤].

فمن يأمن علىٰ نفسه وبنيه في هٰذا الزمان اتّباع الدساتير والطواغيت من

[١] سورة مريم: ٤٨
[٢] سورة مريم: ٤٩-٥٠
[٣] سورة إبراهيم: ٣٥
[٤] الدر المنثور للسيوطي - دار الفكر: ٥/ ٤٦



العلماء، وعبادة القبور والأوطان والأولياء؟ من يأمن علىٰ نفسه عبادة الدنيا التي صار الناس لها عبيدًا يتفانون في جَمعها، ويوالون ويعادون عليها؟ من يأمن علىٰ نفسه الزّلل في هٰذه الأمواج المتلاطمة والفتن المتساقطة؟ ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١]. اللّٰهم سلّم عبادك من فتن آخر الزمان وطواغيتها.

يا أيها الناس: إنّ النجاة في هٰذا الزمان هي في معرفة حقيقة دعوة الأنبياء من لدُن نوح إلىٰ أبي الأنبياء إبراهيم عليهما السلام، إلىٰ الخاتم محمد صلىٰ الله عليه وسلم، فمن عرف الحق واستنار به، عرف أهله، ومن تصوّر حقيقة الإسلام الذي أتىٰ به الأنبياء، ثم نظر إلىٰ أهله وعشيرته وقومه وداره، عرف أنهم ليسوا علىٰ شيء من ذٰلك الأمر العظيم والنذير المبين، كما عرف الحنفاء الحق بفطرتهم في الجاهلية النكراء، فعرفوا حقيقة أقوامهم، المشركين في السرّاء والضرّاء.

فالإصابة في معرفة ماهية الإسلام العتيق وحقيقته، هي طوق النجاة، وهي الميزان الذي توزَن به الدعوات والحركات والشعوب والحضارات، لذٰلك توجهَت عناية الصادقين إلىٰ تحديد حقيقة الإسلام وملة إبراهيم، وتحكيمها علىٰ الأنام في سائر الأزمان.

---

[١] سورة النحل: ٩٤

ولقد اجتهدتُ في هٰذه الرسالة في تقريب مفهوم «الملة الحنيفية» لطالب الحق، وباغي الخير، وسالك النجاة، والمتجرّد إلى الدليل. عَرضتُها بطريقة سلسة مشبعة بالأدلة والآثار، عسىٰ الله أن يجعلها حجة علىٰ العالمين، ومنارة للقاصدين.



والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.

الباب الأول
حقيقة ملة إبراهيم

إنّ حقيقة الملة الحنيفية جاءت مبيَّنة موضَّحة في كتاب الله، ومن أظهر تلك المواضع، قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[١].

قال الطبري: «وقوله: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، يقول: حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله وعبدوا الطاغوت: أيها القوم إنا برآء منكم ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد. وقوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾، يقول جلّ ثناؤه مخبرًا عن قيلِ أنبيائه لقومهم الكفرة: كفرنا بكم، أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله، وجحَدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله أن تكون حقًّا، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا على كفركم بالله وعبادتكم ما سواه، ولا صُلح بيننا ولا هوادة. ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾، يقول: حتى تُصدّقوا بالله وحده، فتوحّدوه، وتفردوه بالعبادة»[٢].

---

[١] سورة الممتحنة: ٤

[٢] تفسير الطبري – دار التربية والتراث : ٢٣/ ٣١٧

فهذه ملة إبراهيم:

١) براءة الأنبياء من الأقوام المشركة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾.

٢) والتصريح لهم –عند القدرة– بالكفر والبغضاء والعداوة: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾.

٣) وإنكار عبادتهم للطواغيت: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

٤) وقطْع الموالاة إلا بالتوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده دون ما سواه: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾.

وهذه أركان الملة الحنيفية:

١) براءة من الأقوام المشركة، وبُغضها، وعداوتها.

٢) وبراءة من شركها وكُفرها.

٣) وبراءة من المعبودات والآلهة والطواغيت التي تعبدها من دون الله.

فهي براءة من العبادة، والعابد، والمعبود من دون الله، فلا تتحقق الملة الحنيفية إلا بهذه الأركان الثلاثة، وقد جُمعت في آية الممتحنة، وجاءت متفرّقة في مواضع أخرىٰ من كتاب الله، فلا يتحقق التوحيد الخالص

إلا باستكمال هٰذه البراءة التامة، فإن تخلّفَ أحد أركانها، فلا توحيد ولا حنيفية. فلا تكون براءة من الشرك إلا بالبراءة من العابد والمعبود، ولا تكون براءة من المعبود إلا بالبراءة من العابد وشركه، ولا تكون براءة من العابد إلا بالبراءة من شركه ومعبوده، فإن اعتقد صحة عبادة الطواغيت، أو صحّح إسلام عابديها، ما عرف التوحيد، ولا حقّق الملة الحنيفية، ولا شمّ رائحة الإسلام.

وهٰذه أركان البراءة التي لا يصحّ ركن النفي في كلمة التوحيد–لا إلٰه إلا الله–إلا بها، وهٰذا المعنىٰ جاء واضحًا في كتاب الله في غير ما موضع، ومن أظهره سورة الكافرون، التي سمّاها النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «براءة من الشرك»، كما روي عن فروة بن نوفل، عن أبيه، أنّ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «فمجيءُ ما جاء بك؟ قال: قلتُ: جئتُ يا رسول الله لتعلّمَني شيئًا أقوله عند منامي. قال: إذا أخذتَ مضجَعكَ، فاقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[١]، ثم نم علىٰ خاتمتِها؛ فإنها براءة من الشرك»[٢].

ووجه الدلالة، أنّ سورة الكافرون مفتتَحة ومختتَمة بالبراءة من الكافرين ودينهم ومعبودهم وعبادتهم، فسمّاها النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «براءة من

[١] سورة الكافرون: ١

[٢] السنن الكبرى للنسائي – مؤسسة الرسالة: برقم ١٠٥٦٩



الشرك»، وهي براءة من المشركين، كما روي عن عمرو بن مالك، قال: «كان أبو الجَوْزاء يقول: أكثِروا قراءة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وابرَؤوا منهم»[١].

المطلب الأول: البراءة من الشرك

وهي ترك الشرك، واعتقاد عدم أحقيّة الآلهة الباطلة للعبادة. وينقضها التلبّس بالشرك بالله، أو اعتقاد أحقيّة الآلهة الباطلة للعبادة. وهذا المعنى دلّت عليه حُجج الله تعالى؛ كالعقل السليم، والفطرة السويّة، والميثاق القديم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[٢].

عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «يقول الله تعالى لِأَهْوَنِ أهل النار عذابًا يوم القيامة: لو أنّ لك ما في الأرض من شيء، أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول: أردتُ منك أهونَ من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي شيئًا، فأبيتَ إلا أن تشرك بي»[٣].

---

[١] فضائل القرآن لابن الضريس – دار الفكر: برقم ٢٤١

[٢] سورة الأعراف: ١٧٢

[٣] صحيح البخاري – دار عطاءات العلم: برقم ٦٥٥٧

فقُبح الشرك والبراءة منه، حقيقةٌ استودعَها الله الفطَر، وأقام عليها حُججه البالغة، وهي من أصل الدعوة التي جاء بها الأنبياء إلى الأقوام المشركة المعاندة، وهي من صميم ملة إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١]. وهي دعوة جميع الأنبياء، ومن ذلك ما أخبر الله به عن قوم عاد، لمّا قال لهم أخوهم هود عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[٢]، فأجابوا عن ذلك بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[٣]، فما كان جواب هود إلا أن قال: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[٤].

وفي قصة صالح، لمّا قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[٥]، فأجابوا عن ذلك بقولهم: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[٦].

---

[١] سورة الزخرف: ٢٦-٢٨
[٢] سورة الأعراف: ٦٥
[٣] سورة الأعراف: ٧٠
[٤] سورة هود: ٥٤-٥٥
[٥] سورة الأعراف: ٧٣
[٦] سورة هود: ٦٢

وكما قالت مدين لشعيب، لمّا دعاهم إلىٰ ترك الشرك، وإخلاص العبادة لله: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[١].

إنّ البراءة من الشرك لا تنفكّ عن البراءة من المشركين؛ لأنّ الله عز وجل جعل الميثاق والفطرة والعقل حججًا علىٰ الإشراك به، فلا يُعذر المشرك بحال؛ لأنّ الحجّة قائمة عليه في كل حال. أي: لا يمكن شرعًا وجود الشرك -اختيارًا- دون المشرك، وليس في دين الله «مشرك مسلم» إلا في عقول أحفاد الجهم بن صفوان؛ لأنّ الحنيف غير المشرك. قال تعالىٰ: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[٢]، قال أبو بكر الصديق: «كان الناس يحجّون وهُم مشركون، فكانوا يسمونهم حنفاء الحُجّاج، فنزلت: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾»[٣].

وكل من تلبّس بالشرك مختارًا، يسمّىٰ مشركًا، في كل أحواله، عالمًا كان أو جاهلًا، مُعانِدًا كان أو مُعرِضًا، متأولًا كان أو مُلَبَّسًا عليه يظن أنه من المهتدين، كان قبل الرسالة أو بعدها، حديث عهدٍ بإسلام أو يعيش في نائية؛ إذ الحجة قائمة عليه بالميثاق والفطرة والعقل، وهي لا تنفكّ عنه

[١] سورة هود: ٨٧
[٢] سورة الحج: ٣١
[٣] تفسير ابن أبي حاتم - مكتبة نزار الباز: برقم ١٣٩١٦

في جميع هٰذه الأحوال، فلا ينفكّ الشرك عن المشرك؛ فاسم المشرك ثابت قبل الرسالة وبعدها. قال ابن تيمية: «فاسم المشرك ثبت قبل الرسالة؛ فإنه يشرك بربه ويعدِل به، ويجعل معه آلهة أخرىٰ، ويجعل له أندادًا قبل الرسول، ويُثبِت أنّ هٰذه الأسماء مُقدَّم عليها»[١].

وإذا تحقّق التلازم بين الشرك والمشرك، تحقّق التلازم بين البراءة من الشرك والبراءة من المشرك. فـ«لا إله إلا الله» ركنها البراءة من الشرك، والبراءة من المشركين، والبراءة من الآلهة الباطلة، ومن لم يأت بذٰلك لم يصحّ إسلامه، ولم يكن من أهل «لا إله إلا الله». وقد جاء الجَمع بين الشرك والمشرك في كتاب الله في مواضع عدة، منها بيان ملة إبراهيم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[٣]. فقدّم البراءة من العابدين؛ لأنها تتضمّن البراءة ممّا يعبدون، فهي براءة من العامل وعمله، ومن العابد وعبادته، ومفاصَلة الشرك كله لا تتحقق إلا بالبراءة من أهله، واعتقاد أنهم علىٰ دين باطل. فمن حقّق هٰذه المفاصَلة، تحقّق بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

---

[١] مجموع الفتاوى لابن تيمية - مجمع فهد للقرآن: ٢٠/ ٣٨
[٢] سورة الأنعام: ٧٨-٧٩
[٣] سورة الممتحنة: ٤



المطلب الثاني: البراءة من المشركين

وهي مُفارقة المشركين في الدين، واعتقاد أنهم علىٰ دين باطل. وينقضُها أسلمة المشركين، واعتقاد أنهم معذورون بالجهل أو التأويل أو غيرها من المعاذير؛ فلا عذر بالجهل أو التأويل أو التقليد أو الخطأ في الشرك بالله رب العالمين. فيجب علىٰ المكلّف اعتقاد أنّ المشركين في دين باطل بتلبّسهم بالشرك، وهٰذا الاعتقاد من صميم الملة الحنيفية، بل لا يصحّ الدخول في دين الإسلام حتىٰ تُترك ملة الشرك–بمفاصلة القوم المشركين والبراءة منهم وممّا يعبدون من دون الله–، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١]، فتبرّأ إبراهيم من قومه ومن آبائهم الأقدمين.

قال ابن زيد في قول الله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[٢]، قال: «الذين معه: الأنبياء»[٣]، ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[٤].

[١] سورة الأنبياء: ٥١–٥٤
[٢] سورة الممتحنة: ٤
[٣] تفسير الطبري – دار التربية والتراث: ٢٣/ ٣١٧
[٤] سورة الممتحنة: ٤

وقد أمر الله نبيّه محمدًا صلى الله عليه وسلم، بالإسلام، ونهاه أن يكون من المشركين، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١]. وهذا النهي يقتضي المفاصلة والبراءة منهم؛ فالبراءة من المشركين شرط في صحة الإسلام، كما أنّ ترك الشرك شرط في صحة العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[٣].

فجعل ترك الشرك شرطًا في صحة العبادة، فلا تصحّ عبادة مع الشرك بالله، كما أنّه لا يصحّ إسلام مع أسلمة المشركين وعدم البراءة منهم. ومثله في كتاب الله كثير، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[٥]، فقدّم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم. ومثله في قوله تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[٦]، قال ابن كثير: «أي: نحن بُرآء منكم»[٧].

---

[١] سورة الأنعام: ١٤
[٢] سورة النور: ٥٥
[٣] سورة النساء: ٣٦
[٤] سورة الأنعام: ٧٩
[٥] سورة مريم: ٤٨
[٦] سورة الشورى: ١٥
[٧] تفسير ابن كثير – دار الكتب العلمية: ٧/ ١٧٩



وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١]، قال السمعاني: «هٰذا مثل قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٢]، ومثل قوله تعالىٰ: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[٣]»[٤]. فهٰذه الآيات كلها في البراءة من المشركين في مقام الدعوة إلىٰ الإسلام، وبيان صفة التحقق به.

والدليل علىٰ أنّ البراءة من الأقوام الكافرة، من أصول ملة إبراهيم ودعوة الرسل أجمعين، الآيات المفسّرة لحقيقة التوحيد؛ فهي كلها في مخاطبة الأنبياء لأقوامهم المشركين، وبيان حقيقة عملهم وما هُم عليه من الشرك، ونهيهم عن ذٰلك، ودعوتهم إلىٰ الإسلام، وتوصيف حالهم. فكيف يكون المرء محقّقًا لملة إبراهيم وركنها البراءة من المشركين، إذا كان مؤسلمًا لقومه الذين هُم أشدّ كفرًا وشركًا من عبّاد الكواكب والنجوم والأصنام؟!

والآيات المفسّرة للتوحيد، الواردة في بيان ملة إبراهيم وحقيقة دعوة الرسل، كلها خطاب من الرسل إلىٰ أقوامهم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ

[١] سورة يونس: ٤١
[٢] سورة الكافرون: ٦
[٣] سورة البقرة: ١٣٩ | سورة القصص: ٥٥ | سورة الشورى: ١٥
[٤] تفسير السمعاني - دار الوطن: ٢/ ٣٨٥

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١]. وسياق قصص الأنبياء في سورتَي الأعراف وهود، حيث يتكرّر قوله تعالىٰ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[٢]. فدعوة الأنبياء قاطبة، قائمة على إفراد الله بالعبادة، والبراءة من الشرك وأهله، وهٰذا أُسّ الصراع، وأصل النزاع بين الأنبياء والأقوام المكذّبة والقرىٰ المعاندة؛ فلا يؤمن الرجُل من هٰذه الأقوام للأنبياء إلا بعد البراءة من أهله وعشيرته، وتكفيرهم، واعتقاد أنهم ليسوا على شيء من الدين الحق، وخلع الأنداد، واتّباع الرسول الذي بُعث فيهم، والخضوع والانقياد لأمر الله تعالىٰ، والكفر بالأرباب، كما روىٰ ابن إسحاق في السيرة: «ثم إنّ أبا بكر لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أحقٌّ ما تقول قريش يا محمد؛ من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آباءنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر، إني رسول الله ونبيّه، بعثني لأبلّغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق، فوالله إنه للحق أدعوك، إلى الله يا أبا بكر، وحده لا شريك له، ولا يُعبد غيره، والموالاة على طاعته أهل طاعته. وقرأ عليه القرآن، فلم يَفِرّ، ولم يُنكر، فأسلم، وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد، وأقرّ بحق الإسلام، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدّق»[٣].

---

[١] سورة الزخرف: ٢٦-٢٨

[٢] سورة الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥ | سورة هود: ٥٠، ٦١، ٨٤

[٣] سيرة ابن إسحاق - دار الفكر: ص١٣٩



المطلب الثالث: البراءة من الطواغيت والأرباب والآلهة الباطلة

وهي ترك عبادتها، واجتنابها، واعتقاد أنها رؤوس في الكفر وأئمة في الضلال، وهي ملّة جميع الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[١]، فقوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، أي: هو في جانب وأنتم في جانب، وهي مبالغة في المفاصلة، ويكون ذٰلك بالبراءة من كل الآلهة الباطلة وعابديها، وبُغضهم وعداوتهم وتكفيرهم. ولنا في أبينا إبراهيم الأسوة الحسنة، لمّا قال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[٢]، و: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝٥٦ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[٣]، وهٰذه أعلى مراتب البراءة من الطواغيت؛ بكسرها، وإعلان البراءة منها، والصّدع ببطلان ألوهيّتها، وتحمّل الأذىٰ على ذٰلك. وعلى هٰذا سار بنو إبراهيم من بعده، فقال يوسف الكريم: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

---

[١] سورة النحل: ٣٦
[٢] سورة الأنبياء: ٦٧
[٣] سورة الأنبياء: ٥٦-٥٧
[٤] سورة يوسف: ٣٩-٤٠

وبهٰذا بُعث النبي صلىٰ الله عليه وسلم، كما في حديث عمرو بن عبسة السُّلمي: «... أرسلَني بصِلة الأرحام، وكسْر الأوثان، وأن يوحَّد اللهُ لا يشرَكُ به شيء...»[١]. وعلىٰ مثل ذٰلك مضىٰ الحنفاء، كما روي عن زيد بن أسلم، في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[٢]، قال: «نزلتْ هاتان الآيتان في ثلاثة نَفَرٍ، كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله. في زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي»[٣]. وقد ثبت في السنّة، أنّ هٰؤلاء الحنفاء قد حققّوا البراءة من الأرباب والأقوام وشركهم، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: «رأيتُ زيد بن عمرو بن نُفَيل قائمًا مُسْنِدًا ظَهْره إلىٰ الكعبة، يقول: يا مَعاشر قريش، واللهِ ما منكم علىٰ دين إبراهيم غيري»[٤].

وهٰذه هي البراءة، فإذا قيل لك: ما البراءة؟ فقل ما قال زيد بن عمرو رحمه الله تعالىٰ. ومن لم يأتِ بها مع هٰذه الأقوام، ما عرف التوحيد، وما فارق دين قومه المشركين، كما قال ابن إسحاق: «وأمّا زيد بن عمرو بن نُفَيل، فوقَف فلم يدخُل في يهودية ولا نصرانية، وفارقَ دين قومه، فاعتزَل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تُذبح علىٰ الأوثان، ونهىٰ عن قتل الموؤودة، وقال:

---

[١] صحيح مسلم - دار الطباعة العامرة: برقم ٨٣٢
[٢] سورة الزمر: ١٧
[٣] تفسير ابن أبي حاتم - مكتبة نزار الباز: برقم ١٨٣٨٠
[٤] صحيح البخاري - دار عطاءات العلم: برقم ٣٨٢٨



أعبدُ ربّ إبراهيم. وبادىٰ قومه بعيبِ ما هُم عليه»[١]. ومن الحنفاء، سلمان الفارسي، حيث قال: «كنتُ رجلًا من أهل جَيٍّ، وكان أهلُ قريتي يعبدون الخيلَ البُلق، وكنتُ أعرفُ أنهم ليسوا علىٰ شيء» الحديث[٢]. ومن الحنفاء، عمرو بن عبسة السُّلمي، حيث قال بفطرته: «كنتُ وأنا في الجاهلية أظنّ أنّ الناسَ علىٰ ضلالة، وأنهم ليسوا علىٰ شيء وهُم يعبدون الأوثان...»[٣].

فهٰذه النصوص مفسّرة للقَدْرِ الذي أتىٰ به الحنفاء وأدركوه بفطَرهم، وهو البراءة من الشرك والآلهة الباطلة وأقوامهم المشركة. وحكىٰ الإجماع عبد الرحمٰن بن حسن علىٰ أنّ المرء لا يكون مسلمًا إلا بذٰلك، حيث قال: «وأجمعَ العلماء سلفًا وخلفًا، من الصحابة والتابعين والأئمة، وجميع أهل السنّة، أنّ المرء لا يكون مسلمًا إلا بالتجرّد من الشرك الأكبر، والبراءة منه وممّن فعله، وبُغضهم ومعاداتهم بحسب الطاقة والقدرة، وإخلاص الأعمال كلها لله»[٤].

وقال محمد بن عبد الوهاب: «فالله، الله، إخواني! تمسّكوا بأصل دينكم، أوله وآخره، أسّه ورأسه، وهو: شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها، وأحبّوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم، ولو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت،

[١] سيرة ابن هشام - مكتبة مصطفى البابي: ١/ ٢٢٥
[٢] المعجم الكبير للطبراني - مكتبة ابن تيمية: برقم ٦٠٧٣
[٣] صحيح مسلم - دار الطباعة العامرة : برقم ٨٣٢
[٤] الدرر السنية: ١١/ ٥٤٥

وعادوهم، وأبغضوا من أَحبّهم، أو جادَل عنهم، أو لم يكفّرهم، أو قال: ما عليَّ منهم، أو قال: ما كلّفني الله بهم، فقد كذب هٰذا علىٰ الله، وافترىٰ، بل كلّفه الله بهم، وفرض عليه الكفر بهم، والبراءة منهم، ولو كانوا إخوانه، وأولاده. فاللّه، الله، تمسّكوا بأصل دينكم، لعلكم تلقَون ربكم، لا تشركون به شيئًا. اللّٰهم توفّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين»[١].

وقال أيضًا: «فأمّا صفة الكفر بالطاغوت، فأن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها، وتبغضها، وتكفّر أهلها وتعاديهم. وأمّا معنىٰ الإيمان بالله، فأن تعتقد أنّ الله هو الإلٰه المعبود وحده، دون من سواه، وتُخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم. وهٰذه ملة إبراهيم التي سفِه نفسه من رغب عنها، وهٰذه الأسوة التي أخبر الله بها في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[٢]»[٣].

❋ ❋ ❋

[١] الدرر السنية: ٢/ ١١٩
[٢] سورة الممتحنة: ٤
[٣] الدرر السنية: ١/ ١٦١



الباب الثاني
بين دعوة أول الرسل وخاتم الرسل

المطلب الأول: دعوة نوح عليه السلام

إنّ الله خلق آدم عليه السلام بيديه، وأسجَد له ملائكته، وأسكنه جنّته: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[١]. فوسوس له الشيطان فعصىٰ ربه، ثم تاب عليه وهدىٰ: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[٢]. ثم أنزل الله آدم من جنّته، وأسكنه الأرض مع زوجته، وأنزل معهما إبليس بعد أن أمهله وأنظره: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[٣].

وبدأَت رحلة الصراع بين الحق والباطل في هٰذه الأرض، الصراع بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان، إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها. فمكث الناس من بعد نزول آدم إلىٰ الأرض عشرة قرون علىٰ التوحيد، كما روي عن ابن عباس، قال: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم علىٰ شريعة من

[١] سورة البقرة: ٣٥
[٢] سورة طه: ١٢١-١٢٢
[٣] سورة طه: ١٢٣



الحق، فاختلَفوا، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[١]، قال: وكذٰلك هي في قراءة عبد الله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾»[٢].

ثم دبَّ الشرك في بني آدم في قوم نوح؛ بسبب الجهل، وبُعد العهد، والغلو في الصالحين، فاتخذ الناس من دون الله أولياء: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[٣]. قال ابن عباس: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بَعْدُ؛ أمّا ود: كانت لِكلب بدَوْمَة الجَنْدَل، وأمّا سُواع: كانت لهُذَيْل، وأمّا يغوث: فكانت لمُراد، ثم لبني غُطَيف بالجوف عند سبأ، وأمّا يعوق: فكانت لهَمْدَان، وأمّا نسر: فكانت لحِمْيَر، لآل ذي الكَلاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمّا هلكوا، أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم: أن انصِبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسمّوها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تُعبد، حتىٰ إذا هلك أولئك، وتنسّخ العِلم، عُبدت»[٤].

فلمّا تطاولت العهود والأزمان، واندرس العلم بين الأنام، جعلوا تلك الصور علىٰ تماثيل مجسّدة، ثم جاء قرنٌ منهم، فقالوا: «لم يُسْقَ آباؤنا المطر إلا

---

[١] سورة البقرة: ٢١٣

[٢] تفسير الطبري - دار التربية والتراث: ٤/ ٢٧٥

[٣] سورة نوح: ٢٣

[٤] صحيح البخاري - دار عطاءات العلم: برقم ٤٩٢٠

بدعاء هؤلاء»، فعُبدت بعد ذلك من دون الله، وكانوا بعبادتها شرار الخلق، كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه لمّا ذَكرتْ عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة–يقال لها مارية–، فذكَرتا من حُسنها وتصاويرٍ فيها، فقال: «إنّ أولئك، إِذا مات فيهم الرجل الصالح، بنَوا على قبره مسجدًا، ثم صوّروا فيه تلك الصور، أولئك شِرار الخلق عند الله»[١].

ولمّا انتشرت عبادة الأصنام، وعمّ الكفر والشرك في الأرض، بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام، يدعو هؤلاء المشركين إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهىٰ عن عبادة ما سواه من الصالحين والتماثيل، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم–في حديث الشفاعة–، قال: «فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض...»[٢].

فدعا نوح قومه المشركين إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنمًا ولا تمثالًا ولا طاغوتًا ولا وثنًا، وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، ويفردوه بالتلقّي والاتّباع، فقال تعالى في بيان حقيقة دعوة نوح لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ

[١] موطأ مالك – مؤسسة الرسالة: برقم ١٩٤٧
[٢] صحيح البخاري – دار عطاءات العلم: برقم ٤٧١٢

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[١].

وقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[٢].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[٣]. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[٥].

وقصة نوح عليه السلام مبسوطة في كتاب الله، في حقيقة دعوته، وعناد قومه واستكبارهم وعتوّهم وطغيانهم، حتى قال تعالى فيهم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾[٦].

---

[١] سورة الأعراف: ٥٩
[٢] سورة يونس: ٧١
[٣] سورة هود: ٢٥-٢٦
[٤] سورة المؤمنون: ٢٣
[٥] سورة نوح: ١-٣
[٦] سورة النجم: ٥٢

إلى أن ذكر الله هلاكهم وإغراقهم لتكذيبهم وعنادهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[١]، إلى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢].

فمن أصول دعوة نوح: إفراد الله بالعبادة، وإفراد مصدر التلقّي عن الله تعالى، والاتّباع للرسالة التي جاء بها نوح عليه السلام، والطاعة لله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٣]. قال البغوي: «فاتّقوا الله بطاعته وعبادته، وأطيعونِ فيما آمُركم به من الإيمان والتوحيد»[٤]، وقال السمعاني: «أي: اتّقوا الله بترك الشّرك، وأطيعونِ فيما آمركم به»[٥].

وهي دعوة جميع المرسلين، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٦]. وقوله تعالى:

---

[١] سورة هود: ٤٠
[٢] سورة هود: ٤٤
[٣] سورة الشعراء: ١٠٦-١٠٨
[٤] تفسير البغوي - دار إحياء التراث العربي: ٣/ ٤٧٣
[٥] تفسير السمعاني - دار الوطن: ٤/ ٥٧
[٦] سورة الشعراء: ١٢٤-١٢٦



﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٤٣ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٢].

وقَصْرُ لفظ «العبودية لله» -﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾- علىٰ ما كان يصرفه الوثنيون للأصنام من دعاء واستغاثة وذبح ونذر وغيرها، ودعوىٰ أنّ من أفرد الله بهٰذا القدر فقد حقّق التوحيد، وأفرَد الله بالعبودية التي أُرسل بها الرسل، ولا يضرّ توحيده أن يتّبع شرائع ومناهج وضعية، ويتحاكم إلىٰ طواغيت وأرباب أرضية، فقد ضل سواء السبيل، وأعظمَ علىٰ الله الفرية، ولم يَدْعُ إلىٰ الإسلام الذي جاءت به الرسل، بل قد حَرَّفَ دين الله تعالىٰ، وصحّح دين المشركين، وأمرَ بعبادة غير الله وشرَع عبادة الطواغيت، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[٣].

وهٰذه حقيقة دعوة نوح قومه المشركين المخالفين له في أصل الدعوة؛ فقد دعاهم إلىٰ تحقيق البراءة من الشرك وعبادة الأوثان، ودعاهم إلىٰ التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده دون ما سواه، وفاصَلهم في ذٰلك، وسمّاهم

[١] سورة الشعراء: ١٤٢-١٤٤
[٢] سورة الزخرف: ٦٣
[٣] سورة يونس: ٦٩-٧٠

كفارًا مشركين، ودعا عليهم بالهلاك، وأغلظ في الدعاء، كما أخبر تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[١]، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فما نفعتهم دعوته إلا قليلًا منهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢].

المطلب الثاني: دعوة محمد صلى الله عليه وسلم

إنّ من أعظم النعم والمنن على الخلق، بعثة الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٣]. ومن أهم المقامات في بعثة الأنبياء، بعثة نوح وإبراهيم عليهما السلام؛ فهما أبوا الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٤].

---

[١] سورة نوح: ٢٦-٢٧
[٢] سورة العنكبوت: ١٤-١٥
[٣] سورة آل عمران: ١٦٤
[٤] سورة الحديد: ٢٦

ولقد كانت بعثة إبراهيم الخليل منارة للعالمين، وجعل الله في بنيه النبوة والكتاب، وكان الأنبياء من بعده من نسل إسماعيل وإسحاق ويعقوب، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[١]. ولقد أمر الله إبراهيم ببناء البيت العتيق: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

ودعا إبراهيم أن يبعث الله في بني إسماعيل رسولًا من أنفسهم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣]، فاستجاب الله له الدعاء، فعن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، قال: «يعني: أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، فقيل له: قد استُجيبَ لك، وهو كائنٌ في آخر الزمان»[٤].

---

[١] سورة الأنبياء: ٧٢-٧٣
[٢] سورة البقرة: ١٢٧-١٢٨
[٣] سورة البقرة: ١٢٩
[٤] تفسير ابن أبي حاتم - مكتبة نزار الباز: برقم ١٢٥٥

ثم أمر الله نبيّه إبراهيم بدعوة الناس إلى حجّ البيت، وعلّمه الشرائع والمناسك، فقال: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[١].

ودعا إبراهيم ومن بعده إسماعيل عليهما السلام، الناس إلى الملة الحنيفية، فكان العرب في الجزيرة على الحنيفية دهرًا من الزمان، حتى غيّرها الطواغيت: عمرو بن لُحَيّ الخُزاعي، ورجُل من بني مُدْلِج، كما روي عن زيد بن أسلم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعرف أول من سيَّب السوائب ونصَب النُّصُب، وأول من غيّر دين إبراهيم. قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: عمرو بن لحي، أخو بني كعب، لقد رأيتُه يجرّ قُصْبَهُ في النار، يؤذي أهل النار ريح قصبه. وإني لأعرف من بحَر البحائر. قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: رجُل من بني مُدْلِج، كانت له ناقتان، فجدَع آذانهما، وحرّم ألبانهما وظهورهما، وقال: هاتان لله. ثم احتاج إليهما؛ فشرب ألبانهما، وركب ظهورهما. قال: فلقد رأيتُه في النار، وهُما يقضمانه بأفواههما، ويطآنه بأخفافهما»[٢].

قال ابن كثير: «فعمرو هذا هو ابن لحي بن قَمَعَةَ، أحد رؤساء خُزاعة الذين وُلُّوا البيت بعد جُرْهُمٍ. وكان أول من غيّر دين إبراهيم الخليل،

---

[١] سورة الحج: ٢٧

[٢] الدر المنثور للسيوطي - دار الفكر: ٣/ ٢١٣



فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرَّعاع من الناس إلى عبادتها والتقرّب بها، وشرَع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام، عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾[١]، إلى آخر الآيات في ذلك»[٢].

قال ابن إسحاق: «نصَب عمرو بن لحي الخَلَصَة بأسفل مكة، فكانوا يُلبسونها القلائد، ويُهدون إليها الشعير والحِنطة، ويصُبّون عليها اللبن، ويذبحون لها، ويُعلّقون عليها بَيْضَ النَّعام، ونصَب على الصفا صنمًا يقال له: نَهِيكُ مُجَاوِدُ الرِّيحِ، ونصَب على المروة صنمًا يقال له: مُطْعِمُ الطَّيْرِ»[٣].

وكان تغيير عمرو بن لحي لدين إبراهيم وإسماعيل متمثلًا في أمرين:

١) الدعوة إلى عبادة الأوثان التي كان يعبدها قوم نوح، حيث روي «أنّ عمرو بن لحي كان له رَئِيٌّ من الجن، فأخبره بأنّ أصنام قوم نوح–ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا–مدفونة بجدّة، فأتاها فاستثارها، ثم أوردها إلى تهامة، فلمّا جاء الحجّ دفعها إلى القبائل، فذهبَت بها إلى أوطانها، حتى صار لكل قبيلة ثم في كل بيت صنم، وقد ملأوا المسجد الحرام بالأصنام، ولمّا فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وجد

[١] سورة الأنعام: ١٣٦
[٢] تفسير ابن كثير – دار الكتب العلمية: ٣/ ١٨٨
[٣] أخبار مكة للأزرقي – دار الأندلس: ١/ ١٢٤

حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل يطعنها حتىٰ تساقطت، ثم أمر بها فأُخرجت من المسجد وحُرقت»[١].

قال ابن عباس: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بَعْدُ؛ أمّا ود: كانت لِكلب بدَومَة الجَنْدَل، وأمّا سُواع: كانت لهُذَيْل، وأمّا يغوث: فكانت لمُراد، ثم لبني غُطَيف بالجوف عند سبأ، وأمّا يعوق: فكانت لهَمْدَان، وأمّا نسر: فكانت لحِمْيَر، لآل ذي الكَلاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمّا هلكوا، أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم: أن انصِبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسمّوها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تُعبد، حتىٰ إذا هلك أولئك، وتنسّخ العِلم، عُبدت»[٢].

٢) تشريع الشرائع الجاهلية، ودعوة الناس إلىٰ طاعة غير الله، والتلقّي من الشركاء في التحليل والتحريم والتشريع، كما روىٰ البخاري عن عائشة: «... ورأيتُ فيها عمرو بن لحي، وهو الذي سيّب السّوائب»[٣].

وهذا أصل شرك العالم: عبادة غير الله، وتلقّي الشرائع من الشركاء، وطاعتهم من دون الله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا

---

[١] الرحيق المختوم للمباركفوري - دار الهلال: ص٢٧
[٢] صحيح البخاري - دار عطاءات العلم: برقم ٤٩٢٠
[٣] صحيح البخاري - دار عطاءات العلم: برقم ١٢١٢



يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[١].

وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[٢]، قال ابن عباس ومجاهد والضحّاك وقتادة وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم وغيرهم: «نزلت إنكارًا على المشركين فيما كانوا يحلّلون ويحرّمون من البحائر والسّوائب والوصايل، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾[٣]»[٤].

ويدل على هٰذا الأصل جليًّا، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٥]. فمقالة الذين أشركوا–في الاحتجاج بالقدَر–على أمرين، وهُما أصل شرك العالم:

الأول: ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾، وهو عبادة غير الله.

والثاني: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾، وهو التشريع من دون الله.

[١] سورة المائدة: ١٠٣–١٠٤
[٢] سورة يونس: ٥٩
[٣] سورة الأنعام: ١٣٦
[٤] تفسير ابن كثير – دار الكتب العلمية: ٤/ ٢٣٩
[٥] سورة النحل: ٣٥

ثم أخبر الله تعالىٰ في نفس السياق، أنه أقام الحجة علىٰ الخلق في الأمرَين، وأرسل في كل أمّة رسولًا ينهىٰ عن الشرك في العبادة والحُكم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[١].

ويدل علىٰ هٰذا الأصل كذٰلك، قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾[٢]. روىٰ ابن أبي حاتم: «عن ابن عباس: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾، قال: دين الله. وروي عن مجاهد، وعكرمة في أحد قوليه، وإبراهيم النخعي، والحكَم، والحسن، والسّدي، وقتادة، والضحّاك في الرواية الثانية، وعطاء الخرساني، نحو ذٰلك»[٣]. وعن مجاهد: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾، قال: «الفطرة دين الله»[٤]. وقال الطبري: «﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾، يقول: ولآمرنّ النصيب المفروض لي من عبادك، بعبادة غيرك من الأوثان والأنداد، حتىٰ ينسُكوا له، ويحرّموا ويحلّلوا له، ويشرعوا غير الذي شرعته لهم، فيتّبعوني ويخالفونك»[٥]. وهٰذا أصل شرك العالم؛ في عبادة غير الله، واتّباع شرائع المشرّعين من دون الله.

---

[١] سورة النحل: ٣٦

[٢] سورة النساء: ١١٨-١١٩

[٣] تفسير ابن أبي حاتم - مكتبة نزار الباز: برقم ٥٩٨٥

[٤] تفسير الطبري - دار التربية والتراث: برقم ١٠٤٧٢

[٥] تفسير الطبري - دار التربية والتراث: ٩/ ٢١٣



ويدل على هٰذا الأصل في السنّة، ما ورد في حديث عياض بن حمار، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنّ الله عز وجل قال: «... وإني خَلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنّهم أتتهُم الشياطين، فاجتالتهم عن دينِهم، وحرّمَت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزِل به سلطانًا...»[١]. فسمّى النبي صلى الله عليه وسلم، المفطور عليه: دينًا، والانحراف عنه إلى تحريم الحلال هو الشرك الذي لم ينزل الله به سلطانًا، وهٰذا يدل على أنّ المنحرفين عن الفطرة–الدين–يعدِلون إلى نُظم وأوضاع وقيَم وشرائع ما أنزل الله بها من سُلطان.

وكان من أصول شرك أهل الكتاب–كما أخبر الله–، اتخاذ الأحبار والرهبان والسادة والعلماء والأشراف والأمراء أربابًا، يتلقّون منهم الشرائع، ويطيعونهم في تحليل ما حرّم الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢]. عن السّدي: «﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، قال عبد الله بن عباس: لم يأمروهم أن يسجدوا لهم، ولكن أمروهم بمعصية الله، فأطاعوهم، فسمّاهم الله بذٰلك أربابًا»[٣].

---

[١] صحيح مسلم – دار الطباعة العامرة: برقم ٢٨٦٥
[٢] سورة التوبة: ٣١
[٣] تفسير الطبري – دار التربية والتراث: برقم ١٦٦٤١

وسمّىٰ الله الطاعة في التحليل والتحريم شركًا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[١]، قال ابن كثير: «أي: حيث عَدلتُم عن أمرِ الله لكم وشرعِه، إلىٰ قولِ غيرِه، فقدّمتم عليه غيرَه، فهٰذا هو الشرك»[٢].

ثم مضىٰ الناس علىٰ دين الوثنية وعبادة الأصنام واتّباع ما شرعه عمرو بن لحي الخزاعي والطواغيت من بعده، كما قال ابن عباس: «إذا سَرَّكَ أن تعلم جهْل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٣]، إلىٰ قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾»[٤]. وعن ابن طاوس، عن أبيه، في قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾[٥]، قال: «كان أهل الجاهلية يستحلّون شيئًا ويحرّمون أشياء، فقال: لا أجدُ فيما كنتم تستحلّون إلا هٰذا. يقول: ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾»[٦].

---

[١] سورة الأنعام: ١٢١
[٢] تفسير ابن كثير – دار الكتب العلمية: ٣/ ٢٩٥
[٣] سورة الأنعام: ١٤٠
[٤] صحيح البخاري – دار عطاءات العلم: برقم ٣٥٢٤
[٥] سورة الأنعام: ١٤٥
[٦] تفسير عبد الرزاق – دار الكتب العلمية: برقم ٨٦٥

فصارت الأرض إلى جاهلية جَهلاء، عربها وعجمها؛ فأهل الكتاب حرّفوا وبدّلوا دين موسى وعيسى عليهما السلام، والعرب بدّلوا دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: «... وإنّ الله نظر إلى أهل الأرض، فمقَتهم عربَهم وعجَمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب...»[١]. فعمّت الجاهلية الأرض، إلى أن بعث الله النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[٢].

فبُعث فيهم صلى الله عليه وسلم؛ ليُخرجهم من ظلمات الجاهلية في عبادة الأوثان وتشريع الشرائع من دون الله، إلى إفراد الله بالعبادة والطاعة والتلقّي والاتّباع، كما قال تعالى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٣]. أي: لتُخرجَ الأرض–التي مقَتها الله عربها وعجمها إلا بقايا من أهل الكتاب–من ظُلمات الحيرة والتيه في تعدّد الآلهة والأرباب، وظلمات الوهم والخرافة في وثنيّة القربات والتصوّرات، وظلمات سَنِّ القوانين وجهالة التشريعات، وظلمات الرذيلة والفجور في اختلال القيَم وانحلال

[١] صحيح مسلم – دار الطباعة العامرة: برقم ٢٨٦٥
[٢] سورة الرعد: ٣٠
[٣] سورة إبراهيم: ١

الأخلاق، إلىٰ نورٍ تُشرق به النفوس بعد أُفولها، وينقشع به ظلام الشرك وضباب الخرافة وغبش الأوهام وضلال التشريعات. لقد بُعث النبي صلىٰ الله عليه وسلم بين قوم مشركين جاهليين، أهل فترة وغفلة، يعبدون الجن والأحجار والأوثان، ويتحاكمون إلىٰ الطواغيت والكُهّان، ويتلقّون الشرائع من صناديد الكفر في دار الندوة-كالبرلمان في هٰذا الزمان-. فلمّا دعاهم إلىٰ إفراد الله بهٰذه الأصول-العبادة والحُكم والتلقّي والاتّباع-، كان منهم الصدود والإعراض، والتكذيب والكُفران، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[١].

وقال تعالىٰ فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[٢]، فالدعوة إلىٰ البراءة من الشرك والآلهة الباطلة، وإفراد الله بالتلّقي والاتّباع، قوبلَت بالكفر والصّد والعناد: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[٣]. وكانوا يزعمون أنهم علىٰ ملة إبراهيم، ودين إسماعيل عليهما السلام، فأكذبَ الله زعمهم، وجرّدهم من نسبتهم، فقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤].

---

[١] سورة ص: ٥
[٢] سورة الصافات: ٣٥-٣٦
[٣] سورة الأنعام: ٦٦
[٤] سورة آل عمران: ٦٧

وفي المقابل، اصطفىٰ الله أهل الهداية من السابقين الأولين، فأجابوا داعيَ الإسلام في حال الغربة والفتنة والشدة والبلاء. ولا شك أنّ الخارج منهم من الجاهلية إلىٰ الإسلام، يرىٰ قومه علىٰ ضلالة، وأنهم علىٰ دين باطل، وليسوا علىٰ شيء من الحق. وهٰذا المعنىٰ أدركه بفطرته عمرو بن عبسة السُّلمي، حيث قال: «كنتُ وأنا في الجاهلية أظن أنّ الناس علىٰ ضلالة، وأنهم ليسوا علىٰ شيء وهُم يعبدون الأوثان...»[١].

وللأسف، فهٰذا المعنىٰ–الذي أدركه الحنفاء بفطرتهم–قد جهله عامة الناس في هٰذا الزمان. الزمان الذي ارتفع فيه الإسلام عن الأرض، وعمّت فيه الجاهلية بأوضاعها ونُظمها، وهي الجاهلية الأخرىٰ التي أخبر الله بها في كتابه، كما روي عن ابن عباس، في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[٢]، قال: «تكون جاهلية أخرىٰ»[٣]. إنها الجاهلية الأخرىٰ التي نعيشها في هٰذا الزمان، وتحقيق الإسلام فيها عزيز، ولا يكون إلا كما حققّه الرعيل الأول، سواء بسواء.

[١] صحيح مسلم – دار الطباعة العامرة: برقم ٨٣٢
[٢] سورة الأحزاب: ٣٣
[٣] تفسير ابن أبي حاتم – مكتبة نزار الباز: برقم ١٧٦٧٢

المطلب الثالث: أصول دعوة الأنبياء عليهم السلام

من أصول دعوة الأنبياء: البراءة من الشرك، والتحذير منه، والتحريض على ترك عبادة غير الله تعالى، والحث على إفراد الله بالعبادة وحده دون ما سواه، وإخلاص العبادة لله، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٤].

وعن أبي مالك، عن أبيه، قال: «سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من وحّد الله، وكفر بما يُعبد من دونه، فقد حرُم دمه، وحسابه على الله»[٥].

ومن أصول دعوتهم: الحض على البراءة من الطواغيت والآلهة الباطلة، واجتنابها، وترك عبادتها، والتنفير والتنقيص منها، وبيان أنها لا تصلُح

---

[١] سورة النحل: ٣٦
[٢] سورة الزخرف: ٤٥
[٣] سورة الأنبياء: ٢٥
[٤] سورة البينة: ٥
[٥] مصنف ابن أبي شيبة - دار التاج: برقم ٢٨٩٣٥



للعبادة، ولا تنفع ولا تضر، ولا تسمع الدعاء، ولو سمعَت ما أجابت النداء، قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٤].

---

[١] سورة يونس: ١٨
[٢] سورة طه: ٨٨-٨٩
[٣] سورة النجم: ١٩-٢٣
[٤] سورة فاطر: ١٣-١٤

ومن أصول دعوتهم: البراءة من المشركين وأقوامهم الكافرين بهذه الدعوة المباركة، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]. قال الطبري: «يقول تعالىٰ ذكره لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك الذين عجِبوا أن أوحيتُ إليك: إن كنتم في شك، أيها الناس، من ديني الذي أدعوكم إليه، فلم تعلموا أنه حقّ من عند الله، فإني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنّي شيئًا، فتشكّوا في صحته»[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤]، قال الطبري: «ويعني بقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: أقم نفسك علىٰ دين الإسلام. ﴿حَنِيفًا﴾: مستقيمًا عليه، غير معوَجّ عنه إلىٰ يهودية ولا

---

[١] سورة الممتحنة: ٤
[٢] سورة يونس: ١٠٤
[٣] تفسير الطبري - دار التربية والتراث: ١٥/ ٢١٧
[٤] سورة يونس: ١٠٥



نصرانية ولا عبادة وثن. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: يقول: ولا تكوننّ ممّن يشرك في عبادة ربه الآلهة والأنداد، فتكونَ من الهالكين»[١].

فالقرآن كله في بيان أصول دعوة الأنبياء، وهي الدعوة إلىٰ توحيد الله في العبادة والتلقّي والحُكم والاتّباع، والنهي عن الشرك بالله في ذٰلك كله، والقرآن كله في البراءة من هٰذا الشرك ومن أهله، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٥].

---

[١] تفسير الطبري – دار التربية والتراث: ١٥/ ٢١٨
[٢] سورة الأنعام: ١٤
[٣] سورة الأنعام: ٧٩
[٤] سورة النحل: ١٢٣
[٥] سورة الكافرون: ١-٦

وغيرها من الآيات في المفاصَلة بين المسلمين والمشركين، وبيان أنّ عِباد الله الموحّدين في دين، وعُبّاد الشيطان المشركين في دين آخر، فمن جعل المشركين كالمسلمين، فقد انتكسَت عنده الفطرة، وردّ الميثاق، وكذّب القرآن، ولا حظّ له من الإسلام والإيمان.

قال حمد بن عتيق: «وبالجملة، فأصلُ دين جميع الرسل، هو القيام بالتوحيد، ومحبته، ومحبة أهله، وموالاتهم، وإنكار الشرك، وتكفير أهله، وبُغضهم، وإظهار عداوتهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[١]. ومعنى قوله: ﴿وَبَدَا﴾، أي: ظهَر وبان، والمراد التصريح باستمرار العداوة والبغضاء لمن لم يوحّد ربه، فمن حقّق ذلك علمًا وعملًا، وصرّح به حتى يعلمه منه أهل بلده، لم تجب عليه الهجرة من أي بلد كان»[٢].

❊ ❊ ❊

[١] سورة الممتحنة: ٤

[٢] الدرر السنية: ٨/ ٤١٨

الباب الثالث

تحقيق ملة إبراهيم في هذا الزمان

إنّ تحقيق الملة الحنيفية في هٰذا الزمان يقوم علىٰ الإتيان بالأركان الثلاثة التي سبق تفصيلها في هٰذا الكتاب، ونذكر في هٰذا الباب تنزيلها علىٰ واقع الناس اليوم، فيما أحدثوه من مخالفة وشرك وكفر وتنديد، ونفصّلها هنا بعد الإجمال؛ حتىٰ يتسنىٰ للمكلّف أن يعرف ما وقع فيه قومه من شرك، فيحذره ويجتنبه، ويعرف المشركين في هٰذا الزمان، فيكفّرهم ويحقّق البراءة منهم، ويعرف طواغيت الأرض، فيحقّق البراءة منهم ويعتزلهم ويجتنب عبادتهم، فينجو بذٰلك –بعد تحقيق أصول معتقد أهل السنة والجماعة– ويَسلم له دينه في هٰذه الجاهلية النكراء.

المطلب الأول: البراءة من الشرك في هذا الزمان

لقد انتشر الشرك بالله في هٰذا الزمان، في صوَر كثيرة جدًّا في هٰذه الديار، تحت ظل هٰذه الجاهلية النكراء، لا سيما مع استمرار حُكم الطواغيت لأزمان مديدة، وسعيهم إلىٰ إدخال عموم المحكومين في الكفر أفواجًا، وسلخِهم من الفطرة السويّة أحداثًا.

فصار الشرك متغلغلًا في حياة الناس، حيث ينشأ عليه الأطفال في مدارس الطاغوت منذ نعومة أظفارهم، إلىٰ أن يمارسوه في شبابهم وشِيبهم في صوَر الولاء والنصرة للوطن، والقتال دونه وتحت رايته وشعاره وفي سبيله، والمشاركة السياسية في اختيار منظومة الحُكم والتشريع، والاتّباع للقوانين الوضعية، والطاعة لأربابها عبر المؤسسات الطاغوتية، وغير ذٰلك ممّا هو متداخل مع العادات اليومية لحياة هؤلاء الجاهليين.

والنجاة منه متعذّرة مستصعَبة، إلا من علّمه الله، وهداه، وشرح صدره للإسلام، ووفّقه لمفاصَلة الجاهلية، وانتقاه.

ونعرض هنا أظهر صوَر الشرك المنتشرة بين الجاهليين في هٰذا الزمان؛ حتىٰ يحذرها السالك علىٰ نفسه وبنيه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾[١].

١) **شرك العبادة:** ومن أبرز مظاهره في هٰذا الزمان، اتخاذ الناس القبور والقباب والمشاهد التي تُصرف لها أنواع العبادات -كالدعاء، والاستغاثة، والخوف، والتوكّل، والسجود، والذبح، وغيرها-، واعتقاد أنها تنفع وتضر، وتقضي الحوائج، وتكشف الكرب، وأنّ لها الشفاعة والزلفىٰ عند الله تعالى.

[١] سورة إبراهيم: ٣٥-٣٦

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنّها لا تقوم الساعة حتىٰ يخرج الناس من الدين أفواجًا، ويعودوا إلىٰ عبادة الأوثان أفواجًا، فعن أبي هريرة، قال: «تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[١]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليخرجُنّ منه أفواجًا، كما دخلوا فيه أفواجًا»[٢]. وعنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «لا تقومُ الساعة حتىٰ تضطربَ أليات نساء دَوْسٍ علىٰ ذي الخَلَصَة»[٣].

وهٰذا من أصل شرك العالَم–كما سبق معنا–، فاتخاذ القبور والمشاهد والأوثان والمعابد في هٰذا الزمان، في عموم البلدان العربية؛ كالبدوي في مصر، والست زينب في سوريا، والجيلاني في العراق، وعبد الرحمٰن الثعالبي في الجزائر، والحسينيات في جزيرة العرب، وغيرها الكثير، لَمعالم بارزة وصروح شاهدة علىٰ الجاهلية القائمة في الأرض في هٰذا الزمان. وحال الناس اليوم كحال العرب في الجاهلية الأولىٰ؛ في كل قريةٍ صنم، ولكل قبيلةٍ إله، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾[٤]، فوثنية الجاهلية الأولىٰ هي وثنية اليوم سواء بسواء.

[١] سورة النصر: ١–٢
[٢] مستدرك الحاكم – دار المنهاج القويم: برقم ٨٧٦٨
[٣] صحيح البخاري – دار عطاءات العلم: برقم ٧١١٦
[٤] سورة النجم: ١٩–٢٠



٢) **شرك الربوبية:** ومن أبرز مظاهره في هٰذا الزمان، شرك التشريع، وهو سَنُّ الأحكام والشرائع من دون الله. وهٰذا من اتخاذ الشركاء من دون الله، وهو من أصل شرك العالم -كما بينّا في هٰذه الرسالة-، وكما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[١].

وهٰذا الشرك من أوضح أنواع التنديد في هٰذا الزمان؛ ففي دين الديمقراطية، الشعب مصدر السلطة التشريعية، فهو يمارس حق التشريع من دون الله. وهٰذا المَعلم متمثل في هٰذا الزمان في تنصيب البرلمانات ومجالس الشعب التي تسنّ القوانين والنُّظم، وإجراء الانتخابات لتنصيب الحكّام ونوّاب الشعب المشرّعين. ففي جاهلية العصر تتجلّىٰ بوضوح حاكمية البشر للبشر وعبودية العباد للعبيد.

وكذٰلك من مظاهر شرك الربوبية في هٰذا الزمان، شرك الصوفية الذين يعتقدون ربوبية الأبدال والأولياء[٢]، ووحدة الوجود التي فحواها أنّ الخالق

[١] سورة الشورى: ٢١

[٢] ويعتقد الصوفية في الأولياء عقائد شتى؛ فمنهم من يفضّل الولي على النبي، ومنهم من يجعل الولي مساوٍ لله في كل صفاته -فهو يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويتصرّف في الكون-. ولهم تقسيمات للولاية؛ فهناك الغوث، والأقطاب، والأبدال، والنجباء، حيث يجتمعون في ديوان لهم في غار حراء كل ليلة ينظرون في المقادير. ومنهم من لا يعتقد ذلك، ولكنهم يأخذونهم وسائط بينهم وبين ربهم، سواء في حياتهم أو بعد مماتهم.

عين المخلوق، والمخلوق عين الخالق، وأنّ الله متّحد بمخلوقاته[١]. قال ابن القيم: «ومن هذا، شرك طائفة أهل وحدة الوجود، الذين يقولون: ما ثَمَّ خالق ومخلوق، ولا هاهنا شيئان، بل الحق المنزَّه هو عين الخَلق المشبَّه»[٢].

ومن الشرك الذي صار له صوت في هذا الزمان، شرك الملاحدة الزنادقة، قال ابن القيم: «ومنه شرك الملاحدة القائلين بقِدم العالم وأبديّته، وأنّه لم يكن معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسْرها مستنِدة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادَها، ويسمّونها بالعقول والنفوس»[٣].

٣) **الشرك والكفر في الأسماء والصفات:** ومن أبرز معالمه في هذا الزمان، انتشار المدارس والمعاهد والجامعات التي تدرَّس فيها العقيدة الأشعرية الجهمية في المقرّرات الدراسية، وهي عقيدة كفرية في باب الأسماء والصفات، والأسماء والأحكام، وغيرها من الأبواب العقدية.

وشرك تعطيل الأسماء والصفات هو شرك غلاة الجهمية، كما قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبا مَعمر الهُذلي، يقول: «من زعم أنّ الله عز

---

[١] جاء في كتابهم جواهر المعاني: «فما في ذوات الوجود كله إلا الله سبحانه». وهذه العقيدة مخالفة للعقل والفطرة والشرع، وقد قام إجماع المسلمين على كفر من قال بها، وقد كفّر الله تعالى النصارى بقولهم: «إنّ الله هو المسيح»، فكيف بمن يقول: «إنّ الله متّحد بمخلوقاته»؟!

[٢] الجواب الكافي لابن القيم - دار المعرفة: ص١٣٠

[٣] الجواب الكافي لابن القيم - دار المعرفة: ص١٣٠

وجل لا يتكلم، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يغضب، ولا يرضىٰ –وذكَر أشياء من هٰذه الصفات–، فهو كافر بالله عز وجل، إن رأيتموه علىٰ بئر واقفًا فألقوه فيها، بهٰذا أدين الله عز وجل؛ لأنهم كفار بالله تعالىٰ»[١].

وقال ابن القيم: «ومن هٰذا، شرك من عطّل أسماء الربّ تعالىٰ، وأوصافه، وأفعاله، من غلاة الجهمية والقرامطة، فلم يُثبتوا له اسمًا ولا صفة، بل جعلوا المخلوق أكملَ منه؛ إذ كمالُ الذات بأسمائها وصفاتها»[٢].

٤) **الشرك في الطاعة والاتّباع:** وهو التلقّي عن المشرّعين، وقبول شرعهم، وامتثال أمرهم في التحليل والتحريم وإسقاط الواجبات، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٣]. وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤]، عن ابن عباس، وعن مُرَّةَ، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلىٰ الله عليه وسلم: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، قال: «أكفاءً من الرجال، تطيعونهم في معصية الله»[٥].

---

[١] السنة لعبد الله بن أحمد – دار ابن القيم: برقم ٥٣٥
[٢] الجواب الكافي لابن القيم – دار المعرفة: ص١٣٠
[٣] سورة الأنعام: ١٢١
[٤] سورة البقرة: ٢٢
[٥] تفسير الطبري – دار التربية والتراث: برقم ٤٨٢

فالجَعل في هٰذه الآية، هو اتخاذ الأرباب، كما في قوله تعالىٰ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[١]، وهُم الأكفاء من الرجال، والمتّخَذين من دون الله أربابًا في التلقّي.

قال الطبري: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: «فنهاهم الله تعالىٰ أن يُشركوا به شيئًا، وأن يعبدوا غيرَه، أو يتّخذوا له نِدًّا وَعِدْلًا في الطاعة، فقال: كما لا شريك لي في خَلقكم، وفي رزقكم الذي أرزقكم، ومُلكي إياكم، ونِعمي التي أنعمتها عليكم، فكذٰلك فأفرِدوا لِيَ الطاعة، وأخلِصوا لِيَ العبادة، ولا تجعلوا لي شريكًا ونِدًّا من خَلقي؛ فإنكم تعلمون أنّ كل نعمة عليكم فمنّي»[٢].

وعن الربيع بن أنس: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾، قال: «قلتُ لأبي العالية: كيف كانت الرّبوبية التي كانت في بني إسرائيل؟ قال: ما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم. وهُم يجدون في كتاب الله ما أُمروا به وما نُهوا عنه، فاستنصَحوا الرجال، ونبذُوا كتاب الله وراء ظهورهم»[٣].
وعن حذيفة، قال: «لم يعبدوهم، ولٰكنهم أطاعوهم في المعاصي»[٤].

---

[١] سورة التوبة: ٣١
[٢] تفسير الطبري - دار التربية والتراث: برقم ٤٨٥
[٣] تفسير الطبري - دار التربية والتراث: برقم ١٦٦٤٢
[٤] تفسير الطبري - دار التربية والتراث: برقم ١٦٦٤٣

وصورته في امتثال هٰذه الشعوب للقوانين المخالفة للشريعة، الصادرة عن المشرّعين الوضعيين، دون عصيان مدني. ومصداق ذٰلك انتخاب الشعب نوابًا عنه في التشريع، واتّباعهم فيما يسنّون من الشرائع والأوضاع. وقد تقرّر أنّ «الذين يتّبعون القوانين الوضعية التي شرَعها الشيطان علىٰ ألسنة أوليائه، مخالَفة لما شرَعه الله جل وعلا علىٰ ألسنة رسله صلىٰ الله عليهم وسلم، أنه لا يشكّ في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم»[١].

٥) **الشرك في الحُكم:** ومن صوَره في هٰذا الزمان، تبديل الشرع المنزّل، والحُكم بشرائع الجاهلية والقوانين الوضعية، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾[٢]. قال يحيىٰ بن سلاّم: «﴿وَلاَ يُشِرْكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾، وهي تُقرأ بالياء والتاء. يقولون: ولا تُشرك يا محمد في حُكمه أحدًا. يقول: حتىٰ تجعله معه شريكًا في حُكمه وقضائه وأموره. ومن قرأها بالياء، يقول: ولا يُشرك الله في حُكمه أحدًا»[٣].

ومن مظاهره، التحاكم إلىٰ محاكم الطاغوت في الخصومات واسترداد الحقوق، وقد ورد في سبب نزول آية النساء عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، قال:

---

[١] أضواء البيان للشنقيطي - دار الفكر: ٣/ ٢٥٩
[٢] سورة الكهف: ٢٦
[٣] تفسير يحيى ابن سلام - دار الكتب العلمية: ١/ ١٨٠



«زعم حضرمي أنّ رجلًا من اليهود كان قد أسلم، فكانت بينه وبين رجل من اليهود مُدارأة في حق، فقال اليهودي له: انطلِق إلىٰ نبي الله. فعرف أنّه سيقضي عليه. قال: فأبىٰ، فانطلَقا إلىٰ رجُل من الكهّان فتحاكما إليه. قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[١]»[٢].

فالواجب علىٰ المكلّف، البراءة من هٰذا الشرك وصوَره في هٰذه المجتمعات، واعتقاد بطلانه، واجتنابه، وعدم مقارفته أو التلبّس به.

المطلب الثاني: البراءة من المشركين

إنّ من نظر في صنوف الشرك المنتشرة في هٰذا الزمان، علم يقينًا أنّ جمهور الناس قد تلبّس بهٰذه المكفّرات، وندر أن يَسلم فرد منهم من الوقوع في هٰذه المناطات التي أصبحت مقرّرة في برنامج حياة الأفراد والمجتمعات؛ كالمدارس التي يمكث فيها الطالب لأكثر من عقد من الزمان، والثكنات التي يُساق إليها الشباب للإعداد لنصرة الطواغيت والأوطان،

[١] سورة النساء: ٦٠
[٢] تفسير الطبري – دار التربية والتراث: برقم ٩٨٩٤

والانتخابات التي يُدعىٰ إليها الجاهليون في كل موسم لاختيار الطاغوت الأنسب ليحكمهم بشرائع الجاهلية، والمؤسسات التي يخضع العاملون فيها للوائح الطواغيت والأرباب.

فخلاصة هٰذه الشعوب، هي أجيال نشأت في المدارس الوضعية، فانتكسَت فطرتها، وتشبّعت بالمعاني الوضعية العلمانية، فصار الإسلام عندها محصورًا في شعائر وأذكار لا يخرج من صوامع المساجد، كما أنّ النصرانية المحرّفة هي ترانيم وتعاويذ تُردَّد في الكنائس والمعابد. أمّا في البيوت والأسواق والشوارع والأزقّة وعموم الديار، فالحُكم فيها لغير الله تعالىٰ الواحد القهّار؛ فالأضرحة والمقامات والمزارات تُصرف لها العبادة والدعاء من غير نكير أو تكفير، والمحاكم عامرة تَحكم بشريعة الطاغوت من دون الله العلي القدير، والبرلمانات تُحلّل وتُحرّم وتُشرّع وتَسُنّ اللوائح والقوانين، والشعوب ساكنة خاضعة متّبِعة منقادة دون مدافَعة أو مناجَزة أو مناكَفة، فلا تُنكر شركًا ولا تعرف توحيدًا، فارتفع الإسلام عن الأرض، وحلّت الجاهلية فيها بأوضاعها: العبادة، والحُكم، والولاية، والقيَم، والأخلاق.

ومن المتقرّر في قواعد الشريعة وكلّياتها، أنّ الدار أو القوم أو المجتمع، إذا تفشّىٰ فيهم الشرك والكفر دون نكير ولا نذير، وعُطّلت بينهم معالم الدين

وشرائع الإسلام، واتّبع الناس دين الملوك المبدّلين–بالطاعة والاتّباع في الحُكم والتشريع–، أنّه يُحكم عليهم بعموم الكفر على الأعيان–إلا من أظهر خلاف ما عليه القوم من الكفر بالله–، وذٰلك بإجماع الصحابة، كما نقله عنهم أبو عبيد القاسم بن سلّام، في سياق استدلاله على أنّ العمل ركن في الإيمان، فقال: «والمصدّق لهٰذا، جهاد أبي بكر الصديق رحمة الله عليه، بالمهاجرين والأنصار، على منع العرب الزكاة، كجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الشرك سواء، لا فرق بينها في سفك الدماء، وسبي الذرية، واغتنام المال، فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين بها»[١].

واتّفق عليه المتأخّرون، كما قال حمد بن عتيق: «ومن له مشاركة فيما قرّره المحقّقون، قد اطّلع على أنّ البلد إذا ظهر فيها الشرك، وأُعلنت فيها المحرّمات، وعُطّلت فيها معالم الدين، أنها تكون بلاد كفر، تُغنم أموال أهلها، وتُستباح دماؤهم. وقد زاد أهل هٰذه البلد، بإظهار المسبّة لله ولدينه، ووضعوا قوانين يُنفِذونها في الرعيّة، مخالِفة لكتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وقد علمتَ أنّ هٰذه كافية وحدها في إخراج من أتى بها من الإسلام»[٢].

---

[١] الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام – مكتبة المعارف: ص١٧

[٢] الدرر السنية: ٩/ ٢٥٧

وإذا صارت الأقوام إلى الشرك والكفر العام، فلا تصحّ البراءة من المشركين إلا بتكفير عموم الأقوام؛ لأنّ المشركين قد صاروا في صورة الأقوام، فلا تتحقّق البراءة من المشركين إلا بتكفيرهم، ولا يصحّ إسلام المرء حتى يحقّق البراءة من الشرك والمشركين، بدلالة النصوص المفسّرة لكلمة التوحيد، وبإجماع أهل السنّة والجماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

كما حكى الإجماع عبد الرحمن بن حسن، حيث قال: «وأجمعَ العلماء سلفًا وخلفًا، من الصحابة والتابعين والأئمة، وجميع أهل السنّة، أنّ المرء لا يكون مسلمًا إلا بالتجرّد من الشرك الأكبر، والبراءة منه وممّن فعله، وبُغضهم ومعاداتهم بحسب الطاقة والقدرة، وإخلاص الأعمال كلها لله»[١].

فالبراءة من المشركين في صورة شرك الأقوام وعموم الكفر في الديار، تتحقّق بالبراءة من القوم وتكفيرهم، ودلّت عليه نصًّا آية الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[٢].

[١] الدرر السنية: ١١/ ٥٤٥
[٢] سورة الممتحنة: ٤

والآيـات الـواردة في بيان ملة إبراهيم، وحقيقة دعوة الرسُل، والمفسّرة للتوحيد، كلها خطاب من الرسُل إلى أقوامهم المشركين بالبراءة والتكفير، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

وسياق قصص الأنبياء في سورتي الأعراف وهود، حيث يتكرّر قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[٣].

فالواجب على المكلّف في هذا الزمان، أن يحقّق البراءة من قومه المشركين، ويكفّرهم بالعموم–إلا من أظهر الإسلام بإظهار مفارقة قومه فيما أحدثوه من كفر وشرك بالله تعالى–، وهو الظاهر المعتبَر في هذه الديار.

---

[١] سورة الزخرف: ٢٦–٢٨

[٢] سورة الأنعام: ٧٨–٧٩

[٣] سورة الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥ | سورة هود: ٥٠، ٦١، ٨٤



المطلب الثالث: البراءة من الطواغيت

اعلم أنّ رؤوس الطواغيت في هٰذا الزمان كثيرة، ومنها:

١) الحاكمون بغير شرع الله.

قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[١]، قال جابر بن عبد الله: «كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها: في جُهَينة واحد، وفي أسلَم واحد، وفي كل حيّ واحد، كهّان ينزِل عليهم الشيطان»[٢].

ويدخل في ذٰلك الرؤساء والوزراء والأمراء في هٰذه الديار، الحاكمون بشريعة الغاب، كما يدخل فيه رؤساء العشائر وشيوخ القبائل، الذين يَحكمون بالعادات والسُّلوم، ويدخل فيه القضاة في محاكم الطاغوت في هٰذا الزمان، وكل من تُحوكم إليه بغير شرع الله، وكل من حَكم بغير شرع الله ولو في مقام اللهو واللعب.

٢) المشرّعون في البرلمانات.

قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[٣].

---

[١] سورة النساء: ٦٠
[٢] صحيح البخاري - دار عطاءات العلم: ٤/ ٦٤
[٣] سورة الشورى: ٢١



فهٰؤلاء النوّاب الذين ينتخبهم الشعب لسنّ القوانين والتشريع من دون الله، هُم طواغيت شركاء لله عز وجل في أخصّ خصائص ربوبيته، وهي تشريع الشرائع وسَنّ الأحكام، قال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[١].

٣) علماء الطواغيت.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢].

ويدخل في ذٰلك مشايخ الصوفية والمَداخِلة، واللجان الدائمة للإفتاء في ديار الكفر، التي تعمل تحت إشراف الطواغيت ومؤسساتهم، فهٰؤلاء العلماء هُم الذين يدْعون الناس إلىٰ عبادة الطواغيت، وطاعتهم، والقتال دونهم، ويصدّون عن سبيل الله، فقد صار علماء هٰذه الأمّة –إلا من رحم الله– شرارها، حالهم أشد من حال الأحبار والرهبان الذين ذمّهم الله في كتابه في مواضع، كقوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا

[١] سورة الشورى: ١٣

[٢] سورة الأنعام: ١٢١



عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١]. قال السّدي في قوله تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾[٢]: «هُم من بني إسرائيلَ، وأشباهُهم من هٰذه الأمّة المرجئة»[٣]. وهُم الذين خافهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ هٰذه الأمّة، كما في حديث ثَوْبان: «إنّما أخافُ علىٰ أمّتي الأئمة المُضِلّين»[٤]. وهُم الذين أفسدوا الدين، كما قال ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا المُلُوكُ *** وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا؟

٤) الكهّان والسحرة.

قال الشعبي: «الطاغوت: الساحر»[٥]، ومثله عن أبي العالية، قال: «الطاغوت: الساحر»[٦]. وعن السّدي، في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾[٧]، قال: «وهو أبو الأسلميّ الكاهن»[٨]. ويدخل في ذٰلك المنجّمون ومدّعو علم الغيب علىٰ القنوات.

[١] سورة الأعراف: ١٦٩
[٢] سورة الأعراف: ١٦٩
[٣] تفسير ابن أبي حاتم - مكتبة نزار الباز: برقم ٨٤٩٢
[٤] مسند أحمد - مؤسسة الرسالة: برقم ٢٢٣٩٣
[٥] تفسير ابن أبي حاتم - مكتبة نزار الباز: برقم ٢٦٢٠
[٦] تفسير الطبري - دار التربية والتراث: برقم ٥٨٤١
[٧] سورة النساء: ٦٠
[٨] تفسير ابن أبي حاتم - مكتبة نزار الباز: برقم ٥٥٥١



٥) الشيطان.

وهو رأس من رؤوس الطواغيت، كما روي عن عمر بن الخطاب، قال: «الطاغوت: الشيطان»[١]. وروي عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، والضحّاك، وعكرمة، وعطاء، والسّدي، نحو ذلك. قال ابن كثير: «ومعنىٰ قوله[٢] في الطاغوت–إنّه الشيطان–قوي جدًّا؛ فإنّه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان، والتحاكم إليها، والاستنصار بها»[٣]. والشيطان هو رأس الطواغيت، وكل عبادة لغير الله في الأرض، أو تشريع من دون الله، إنما وقعَت بتزيين الشيطان لأوليائه، وطاعة أمره، واتّباع وحيِه.

ويدخل في هٰذا أرباب المنظّمات التي تدعو إلىٰ الخروج عن الفطرة السوية، كالترويج لفعل قوم لوط. وقد وُجدت في هٰذا الزمان طائفة من الناس تعبد الشيطان، والله المستعان. فالواجب علىٰ المكلّف أن يحقّق البراءة من هٰذه الطواغيت والآلهة الباطلة، ويعتقد كفرهم، ويجتنب عبادتهم.

❋ ❋ ❋

[١] تفسير ابن أبي حاتم – مكتبة نزار الباز: برقم ٢٦١٨
[٢] أي: عمر بن الخطاب، في الأثر السابق ذكره
[٣] تفسير ابن كثير – دار الكتب العلمية: ١/ ٥٢٣

الخاتمة

إنّ من أعظم الحقائق المغيّبة في هٰذا الزمان، هي حقيقة أصل شرك العالم، المركّبة من أمرين: (١) عبادة غير الله، (٢) وتلقّي الشرائع من الشركاء، وطاعتهم من دون الله. وقد بيّنا في هٰذه الرسالة، بالأدلة من الكتاب والسنّة، أنها حقيقة مركّبة، فلا يصحّ تحقيق العبودية والملة الحنيفية إلا بإفراد الله في العبادة والتلقّي والحُكم والاتّباع. وقد درج علماء الطواغيت في حصر هٰذه الحقيقة بشرك النسُك والعبادة فقط، ومن سلِم عندهم من دعاء القبور والتوسل بها فقد سلِم له الدين، وهٰذا أكبر تحريف لأصل دين الله في هٰذا الزمان؛ حيث أُسقط توحيد مصدر التلقّي والحُكم والتشريع من أصل الإسلام، فعُبدت بذٰلك الدساتير والطواغيت في أرض الله، وصارت الطاعة للقانون، والتلقّي من الأرباب، والاستمداد من أهواء البشر، والحُكم للأراذل، وصار الناس بذٰلك عبيدًا للعبيد.

لقد أعطوا السلطان حق التشريع والحُكم، وجعلوه من حقوق الشعوب والطواغيت، ودعوا الناس إلىٰ هٰذا الدين، فأجابوا ودخلَوا فيه أفواجًا وأفرادًا، وكانت منهم الطاعة والاتّباع. إنه الشرك الذي وقع فيه أهل الكتاب في اتّخاذهم الأحبار والرهبان، ودستورهم -المثناة-: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحۡبَارَهُمۡ



وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[١]. وهو الشرك الذي جدّده عمرو بن لُحَيّ الخُزاعيّ في جزيرة العرب لمّا غيَّر دين إبراهيم الخليل، كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[٢].

عن سعيد بن المسيّب، قال: «البَحيرة: التي يُمْنَعُ دَرُّهَا للطواغيت، فلا يحلُبها أحد من الناس. والسّائبة: كانوا يُسَيِّبونها لآلهتهم، لا يُحمَل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيتُ عمرو بن عامر الخُزاعيّ يجرّ قُصْبَهُ في النار؛ كان أول من سيَّب السَّوائب»[٣].

لقد صار الناس بهذا التحريف في هذا الزمان عبيدًا للعبيد؛ فهُم من يصنع طواغيت الحُكم والتشريع، عن طريق انتخابهم، أو عزلهم وتنصيب غيرهم، فالشعب يمارس هذا الشرك عبر الآليّات المُتاحة في الديانة الديمقراطية، وهو نفس الشرك الذي أخبر به الله عن أهل الكتاب، حين اتّخذوا السادة والعلماء والأشراف والأمراء أربابًا، يتلقّون منهم الشرائع،

[١] سورة التوبة: ٣١
[٢] سورة المائدة: ١٠٣-١٠٤
[٣] صحيح البخاري - دار عطاءات العلم: برقم ٤٦٢٣



ويطيعونهم في تحليل ما حرّم الله تعالىٰ، كما قال عبد الله بن عباس: «لم يأمروهم أن يسجدوا لهم، ولكن أمروهم بمعصية الله، فأطاعوهم، فسمّاهم الله بذٰلك أربابًا»[١]. وقد سمّىٰ الله الطاعة في التحليل والتحريم شركًا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢]، «أي: حيث عَدلتُم عن أمرِ الله لكم وشرعِه، إلىٰ قولِ غيرِه، فقدّمتم عليه غيرَه، فهٰذا هو الشرك»[٣].

وهٰذا الذي ذكره المولىٰ في هٰذه الآيات—بأوضح الألفاظ الدالة علىٰ صورة الشرك بالله في التشريع والتلقّي والاتّباع، وأنه من أصل شرك العالم—، نراه واقعًا من عموم الناس في هٰذا الزمان مع الأراذل في البرلمان، ونراه بأوضح مشهد عصري ذي هيكلة إدارية متكاملة، وذٰلك بالترشّح للحُكم والتشريع، والحملة الانتخابية والإعلامية لمشاريعهم وأحكامهم الجاهلية، وحملات التصويت عبر صناديق الاقتراع، ثم مزاولة التشريع تحت قباب البرلمان في المنظومة الديمقراطية التي تُعبِّد الخلق للخلق، في أجلىٰ صورة للشرك بالله تعالىٰ في تاريخ البشرية.

---

[١] تفسير الطبري – دار التربية والتراث: برقم ١٦٦٤١

[٢] سورة الأنعام: ١٢١

[٣] تفسير ابن كثير – دار الكتب العلمية: ٣/ ٢٩٥

ومع كل هٰذا الوضوح، ترىٰ العُميان ومن يسير خلفهم، يقولون: «إنّ هٰذا من جنس المعاصي»، ومن تقدّم منهم قال: «هٰذا شرك الخاصة دون العامة»، ولٰكن الناظر اليوم يرىٰ أنه قد شارك فيه السفهاء والعقلاء، وهُم في الخيرة والرأي والانتخاب فيه علىٰ جهة السواء.

أيها الناس: إنّ جماهير الشعوب الجاهلية في هٰذا الزمان عبيد للطواغيت والدساتير، مشركون في التلقّي والطاعة والاتّباع، خاضعون للأنظمة الديمقراطية الجاهلية، متحاكمون إلىٰ قوانينها وأحكامها، منقادون لأمرها ونهيها وتشريعها، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١].

وكل من عرف الإسلام والملة الحنيفية لا يتردد في نسبة قومه إلىٰ الشرك والوثنية والجاهلية، والبراءة منهم، والكفر بهم. فلا تكُن يا عبد الله ممّن أصمّ آذانه، واتّبع شيوخه وخلّانه، وتولّىٰ بعد ظهور الحق وبيانه، وعاند بعد قيام الحجة عليه فاستوجَب عذابه، وكان ممّن قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[٢]، قال قتادة: «كانوا عُمْيًا عن الحق فلا يُبصرونه، صُمًّا عنه فلا يَسمعونه»[٣].

---

[١] سورة القصص: ٦٨

[٢] سورة الكهف: ١٠١

[٣] تفسير ابن أبي حاتم - مكتبة نزار الباز: برقم ١٢٩٩٤

أيها المكلّف الغافل: تُبْ إلى الله عز وجل قبل فوات الأوان، قال الحسن: «﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾[١]»، بالشرك، ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[٢]، التي كانت في الجاهلية»[٣].

إنّ تحقيق ملة إبراهيم في هذا الزمان، يكون كما أمر الله تعالى في كتابه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[٤].

فمن حقّق البراءة من قومه وممّا يعبدون من دون الله، وكفّرهم وعاداهم وأبغضهم، وآمن بالله، واستسلم لله بتوحيده، ولم يشرك بالله شيئًا في العبادة والحُكم والطاعة والمحبة، واجتنب عبادة الطاغوت، واتّبع ما أنزل الله، وكان عبدًا لله في التلقّي والطاعة والاتّباع لا عبدًا للطواغيت أو وليًّا للكافرين أو ظهيرًا للمشركين، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ

---

[١] سورة الزمر: ٥٣
[٢] سورة الزمر: ٥٣
[٣] تفسير يحيى بن سلام - دار الكتب العلمية: ١/ ٤٩٠
[٤] سورة الممتحنة: ٤
[٥] سورة الأنعام: ١٠٦



لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١]، فمن أتىٰ بذٰلك فقد حقّق ملة إبراهيم، واستمسك بالعروة الوثقىٰ والكلمة الباقية.

اللّٰهم اجعلنا منهم علىٰ الحنيفية، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.

❋ ❋ ❋

اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.



[١] سورة البقرة: ٢٥٦-٢٥٧

